

جون قرنق

2005 – 1945

جون قرنق هو واحد من كبار زعماء الحركة الوطنية السودانية، ليس في الجنوب وحسب بل في السودان على وجه العموم. صحيح أنه نشأ وطنياً جنوبياً يدافع عن حقوق أهل الجنوب الذين كانوا على الدوام عرضة للإضطهاد وللإذلال، سواء في المرحلة الأولى التي سبقت استقلال السودان التي كان يحكم فيها السودان في صورة مشتركة من قبل البريطانيين والمصريين أم في مرحلة الإستقلال التي بدأت في عام 1956. والوطنية بالنسبة إلى جون قرنق تتلخص في أمور ثلاثة: استقلال السودان وسيادته وحرية ووحدة أرضه وشعبه وكيانه الوطني وتعدد وتنوع مكونات شعبه قومياً وعرقياً ودينياً. هذه الأمور الثلاثة مجتمعة كانت الأساس والثابت في نشاطه السياسي حتى وهو يقود ببسالة جيشاً شعبياً للدفاع عن حقوق أهله في الجنوب ولرفع الظلم والإضطهاد والتمييز ضدهم. وظلت تلك السياسة مرافقة له على الدوام في عمله السياسي والعسكري. وكانت هاجسه الدائم خلال المفاوضات الصعبة والطويلة والمعقدة التي انتهت بتوقيع اتفاق السلام بين السلطة المركزية وبين الحركة الشعبية التي كان قرنق يقودها. وقد خلقت له تلك السياسات متاعب في منطقة الجنوب عند بعض القبائل وعند الحركات السياسية التي كانت تمثلها والتي كانت تطالب بالإنفصال عن الشمال وبتشكيل كيان مستقل في منطقة الجنوب. كما خلقت له تلك السياسات متاعب في قلب الحركة الشعبية بالذات. إذ عارضها فريق من رفاقه ممن ضاقوا ذرعاً بالمماطلات وبالمؤامرات وبالإنقلابات الدائمة على الإتفاقات من قبل الحكومة المركزية. إذ كان يفضل هؤلاء الذهاب في الإنفصال والإستقلال إلى نهايته. لكن قرنق الذي كان يملك قدراً كبيراً من سعة العقل ومن الوطنية السودانية الأصيلة وقف بحزم في وجه تلك المعارضات لسياسته من داخل حركته ومن خارجها. وكلفه ذلك ثمناً باهظاً دماءً سودانية ودماءً جنوبية على وجه الخصوص سالت في المعارك التي خاضها ضد تلك الإتجاهات الإنفصالية.

لهذه الأسباب جميعها ولكونه ظل أميناً لسياسته الرشيدة تلك تمكن لفترة لم تدم طويلاً من انتزاع اتفاق السلام الذي أقر للجنوبيين بحقوقهم كاملة وجعلهم شركاء حقيقيين في حكم السودان وفي العمل من أجل تحقيق التقدم له والحرية والسعادة لشعبه. وبدلاً من أن يوافق رفاقه المعارضين لسياسته تحت شعار حق تقرير المصير واختيار الانفصال فوراً فضل قرنق الذهاب في الإتفاق إلى نهايته وإلى نهاية المرحلة الإنتقالية التي كانت تقضي بإجراء استفتاء شعبي يقرر فيه الجنوبيون مصيرهم ومستقبلهم إما في البقاء داخل الوطن السوداني الموحد أو بالإنفصال وبناء كيان مستقل لهم. وكان يراهن قرنق على أن المرحلة الإنتقالية ستساهم في تعميق اندماج الجنوبيين في الوطن السوداني بمكوناتهم القومية والدينية. فيقررون عند ذلك البقاء في الوطن الموحد الذي سيكون فيه شركاء حقيقيين في كل ما يتصل بحاضر بلادهم ومستقبله. وكان يعمل من خلال موقعه كنائب أول لرئيس الجمهورية بموجب اتفاق السلام ومن خلال تحالفاته السياسية في التجمع الوطني الديمقراطي الذي كان يضم القوى المعارضة لحكم الجبهة الإسلامية في البدء ثم لحكم البشير بعد انفصال الترابي عنه، كان يعمل بكل إمكاناته في الإتجاه المشار إليه. وكان يقيم للحركة الشعبية أنصاراً وقواعد في كل مناطق البلاد. إذ كان يعتبر أن ذلك سيجعل الجنوبيين يشعرون بأن مداهم الحيوي كجزء من الشعب السوداني لا ينحصر في الجنوب وحسب بل هو يتعداه إلى كل مناطق السودان وأقاليمه في الشمال والشرق والغرب على حد سواء. لكن قرنق القائد الجنوبي كاتنمء إلى منطقتة، والقائد الوطني كسوداني أصيل غادر الحياة فجأة، وفي شكل مثير للشكوك وللريبة. قيل أن الطائرة التي أفلته في ذات ليلة من أوغندا إلى جوبا عاصمة الجنوب سقطت في الطريق بسبب كثافة الغيوم وسوء الطقس. غادر قرنق الحياة في أول الطريق إلى حرية الجنوبيين وحقوقهم وإلى حرية السودان ووحدته ووحدة شعبه. وطرح رحيله المبكر والمفاجئ الكثير من الأسئلة. وكان أهم تلك الأسئلة يتصل بتحديد من هو صاحب

المصلحة في غيابه أو تغييره. ورغم أن الجواب عن تلك الأسئلة لم يكن واضحاً ولا مقنعاً فقد ساد اعتقاد بأن سقوط طائرة قرنق كان في الأعم الأغلب مؤامرة هدفها التخلص منه من أجل ماذا أو لصالح من بالتحديد على مستوى السلطة المركزية وداخل الجنوب بالذات؟ ذلك هو السؤال الذي لم يجد أجوبة عنه. لكن من الواضح أن غياب قرنق كان خسارة كبيرة للسودان شماله وجنوبه.

لكن التطورات التي شهدتها السودان بعد غياب قرنق تشير إلى أن التخلص منه كان هدفاً حقيقياً لدى كثيرين في السودان ذاته، وفي جوار السودان، وفي جهات أخرى. إذ كان يجري الإعداد لانفصال الجنوب عن الشمال من قبل السلطة في الشمال، ومن قبل قوى خارجية متعددة الإتجاهات والمصالح. وكان قرنق في الواقعة الثانية التي أشرنا إليها عائقاً أمام تحقيق تلك الأهداف. فجرى تغييره.

ولد جون قرنق دي مابيور في عام 1945، في مبيور الواقعة بالقرب من مدينة بور في ولاية أعالي النيل. وهو ينتمي إلى قبيلة الدينكا. أنهى المراحل الأولى من دراسته في منطقته. ومارس العمل مثل سائر أبناء منطقته في رعية الماشية التي تملكها أسرته. انتقل في وقت مبكر إلى الخرطوم حيث عمل خبيراً في الهيئة القومية لشركة الكهرباء. ومن الخرطوم انتقل للعمل في منطقة النيل الأزرق. لم يكمل المرحلة الثانوية من دراسته في منطقة رومبيك، بسبب اندلاع الحرب في جنوب السودان. التحق في عام 1963 بحركة تحرير جنوب السودان التي أطلقت على نفسها اسم "نيانيا"، التي تعني تزيق سم الثعبان، وذلك بعد عام على تأسيس تلك الحركة. وكانت تلك الحركة تضع في رأس أهدافها انفصال الجنوب عن الشمال، لتحرير أهله من الإضطهاد الذي كانوا يعانونه من أهل الشمال. تابع دراسته الثانوية في مدارس تنزانيا. وبعد الإنتهاء من تلك المرحلة من دراسته في عام 1965، انتقل إلى كينيا ليعمل مدرساً في إحدى مدارسها. وحين قررت عائلته أن يتابع دراسته الجامعية أرسلته إلى جامعة أيوا في الولايات المتحدة الأمريكية لتلقي تعليمه

الجامعي فيها. وفور انتهاء دراسته عاد إلى السودان ليشارك مع رفاقه وأخوانه في الحرب داخل قوات حركة "نيانيا" المشار إليها، والتي كان قد انتسب إليها قبل سفره إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1972، وفي أعقاب الإتفاق الذي وقعه النيميري، رئيس السودان في ذلك التاريخ، مع الحركة، الإتفاق الذي استوعبت فيه قوات "نيانيا" الجنوبية في الجيش السوداني. أرسل جون قرنق من جديد إلى الولايات المتحدة الأمريكية في بعثة رسمية لنيل شهادة الدكتوراه في الإقتصاد الزراعي في جامعة أيوا ذاتها التي كان قد درس فيها قبل ذلك. عاد في عام 1981، بعد انتهاء دراسته، ليعمل في مركز الأبحاث العسكرية التابع للجيش السوداني، برتبة عقيد وليمارس التدريس، في الوقت ذاته، في كلية الزراعة في جامعة الخرطوم. في عام 1983 حصلت انتكاسة في الإتفاق الذي كان قد وقع في عام 1972. إذ عادت السلطات تمارس الأساليب القديمة في التعامل مع أهل الجنوب. أدى ذلك الوضع إلى حصول تمرد داخل الجيش السوداني قامت به كتيبة مؤلفة من 500 من الضباط والجنود الجنوبيين. وسارع المتمردون إلى تشكيل تنظيم مسلح أطلقوا عليه اسم "الجيش الشعبي لتحرير السودان". أرسلت الحكومة المركزية الضابط جون قرنق لإخماد التمرد. فانضم إلى المتمردين وصار يتدرج في قيادة الجيش الشعبي إلى أن أصبح في فترة وجيزة زعيم تلك الحركة. وانقطعت، منذ ذلك التاريخ، علاقته بالخرطوم. ولم يعد إليها إلا بعد توقيع اتفاق السلام في عام 2005. وبقيادة قرنق للحركة تحولت السياسة التي كانت متبعة فيها، والتي كانت تتادي بالإنفصال، إلى اتجاه آخر مختلف. إذ كانت وجهة نظر قرنق أن قضية الجنوب هي جزء من قضية السودان، وأن أزمة الجنوب هي جزء من الأزمة العامة في البلاد، التي كانت تعيش فيها منذ مطلع عهد الإستقلال في عام 1956. واقتضى ذلك منه جهداً كبيراً. لكنه انتصر في تبديل شعار الإنفصال إلى شعار وحدة السودان، التي تقوم، أو ينبغي أن تقوم، على أسس ومراكز جديدة، في مقدمتها اقتسام السلطة والثروة بين المركز

والأقاليم، اقتسام يستند إلى العدالة والقانون. وكان من الطبيعي أن تبحث الحركة بقيادة قرنق عن تحالفات في بلدان جوار السودان لكي تتمكن من متابعة كفاحها وتحقيق الأهداف المشار إليها. وكان أول المتحالفين مع الحركة ورئيسها قرنق، الرئيس الأسبق لأثيوبيا منغستو هيلامريم، الذي قدم للحركة المساعدات على اختلافها، بما في ذلك إقامة إذاعة كانت تبث منها الحركة في اتجاه السودان كله بياناتها وتطلق مواقفها.

في عام 1985 هبت انتفاضة في الخرطوم أطاحت حكم النميري وأقامت حكماً وطنياً في البلاد. وخلال الفترة الممتدة بين عام 1985 وعام 1989، العام الذي استولت فيه الجبهة الإسلامية على السلطة في البلاد بانقلاب عسكري دموي، خلال تلك الفترة من الحكم الوطني توطدت علاقات الحركة الشعبية بأحزاب المعارضة في الشمال. وفي عام 1992 انضمت الحركة الشعبية بقيادة قرنق إلى التجمع الوطني الديمقراطي الذي ضم أحزاب المعارضة، ولا سيما القوى الديمقراطية منها (الشيوعيون واليساريون من إتجاهات مختلفة). لكن إنقلاب الجبهة الإسلامية أعاد التوتر في البلاد من جديد، وعادت في ظل تلك الظروف الحركة الشعبية إلى متابعة كفاحها السياسي والعسكري. وفي عام 1992 انضمت الحركة الشعبية بقيادة قرنق إلى التجمع الوطني الديمقراطي الذي ضم أحزاب المعارضة. وصار قرنق، بعد انضمامه إلى التجمع في عام 1992، نائباً لرئيس التجمع الميرغني وقائداً عاماً للقوات المسلحة التابعة للتجمع.

تلك هي مسيرة هذا الزعيم الوطني الكبير، التي انتهت بكارثة سقوطه شهيداً في ذلك الحادث الذي لا بد أن يأتي اليوم الذي تتكشف فيه تفاصيل حدوثه والأهداف التي كانت وراءه.

إلا أن لهذه السيرة عناوين أساسية تعبر عنها مواقفه في مختلف القضايا المتصلة بوطنه السودان، لا يجوز أن ننهي هذا الحديث عنه من دون العودة إليها، والتذكير

بالأساسي منها. وهي مواقف جمعها الوثائق كمبر في كتاب صدر قبل استشهاده
قرنق، وجاء معظمها في أحاديث ومؤتمرات صحفية وحوارات أجراها هذا الزعيم خلال
زيارته إلى القاهرة في عام 1997.

يقول قرنق في الفصل الأول من الكتاب المشار إليه: "أود أن أطرح رؤيتنا، رؤية
الحركة الشعبية والجيش الشعبي لتحرير السودان، الطريق الذي نرى أنه سيقودنا إلى
الأمم. وأعتقد أنه نفس اتجاه التجمع الوطني الديمقراطي. وسمينا هذه الرؤية رؤية
السودان الجديد. وهي تركز على تحليل علمي للأوضاع وتستند على تقويم متماسك
لها في واقعنا التاريخي والمعاصر معاً. وأنا لا أفتعل هذه الأشياء، فهذه حقائق.
هذا هو الموجود فعلاً، ولا بد من تأسيس السودان الجديد على الواقع وليس على
الخيال".

ويتابع قرنق: "الوحدة التي نتحدث عنها في الحركة الشعبية، وأتمنى أن يكون هذا
ما نتجه نحوه في التجمع الوطني الديمقراطي، هي نوع جديد من الوحدة. لا يمكن
أن نكون قد حملنا السلاح ودخلنا الأحرار، في عام 1983، لنأتي بوحدة تضطهدنا.
فهذا ليس طبيعياً، ولم يكن يمكننا أن نفعل ذلك. فالوحدة التي ننادي بها مختلفة
تماماً. وهي ليست نفس الوحدة التي يتحدث عنها الآخرون"

ثم يقول في مكان آخر مخاطباً القوى الأخرى والسلطة: "فما هو الفرق بينهما؟
نقول له: هناك عالم من الفرق بين الأثنين، فالوحدة التي نعنيها تقوم على واقعين،
أولهما أسميه الواقع التاريخي أو التنوع التاريخي، والثاني أطلق عليه التنوع المعاصر
أو الواقع المعاصر. هذان التنوعان أو الواقعان يمثلان عناصر تكويننا وتشكيلنا ولا
بد من تأسيس الوحدة بينهما. فالأساس الأول للوحدة هو التنوع التاريخي. فكتب
العصور القديمة، بما في ذلك الكتاب المقدس، زاخرة بذكر السودان، إذ كانت تحمل
اسم كوش أو السودان أو مصر، وأنا لا أخلق هذه الأشياء..."

ويتابع في شرح حقيقة التنوع والتعدد في السودان فيقول: "الشكل الآخر من التنوع هو التنوع المعاصر. يتكون السودان من قوميات متعددة، من مجموعات إثنية متعددة، أكثر من 500 مجموعة تتحدث أكثر من 100 لغة مختلفة، ومن قبائل كثيرة. هذا هو الموجود وأنا لم أختلقه. فالدناقلة ما زالوا يتكلمون بـ"الدنقلوي" والبجة ظلوا يتحدثون بلغة البجة. وحدث لي شيء غريب عندما ذهبت إلى شرق السودان، في منطقة همشكوريب، لأنفقد قوائنا الموجودة هناك. كنت أخاطب شباب البجة، وهم لا يعرفون العربية إنما يتكلمون لغة البجة فقط، وأنا قادم من الجنوب وأتحدث معهم بالعربية، فكان لا بد من الإستعانة بمترجم، كالدكتور الواصل وهو معي الآن ليترجم حديثي من اللغة العربية إلى لغة البجة. هذا هو التنوع المعاصر. فنجد العديد من القبائل، مثل الدينكا، النوير، الشلك، الزاندي، اللاتوكا "الفرتيت" المورلي وغيرها من القبائل. وفي الشمال أيضاً، توجد قبائل كثيرة غير عربية، فهناك النوبة، افور، الزغاوة، المساليت، والعديد من القبائل العربية، كالبقارة، الكبابيش، الرزيقات، الجعليين وغيرهم. لدينا كل هذه القبائل وغيرها.... ولدينا أديان مختلفة. فهناك المسلمون، وهناك المسيحيون وأصحاب المعتقدات الأفريقية. أما مفهوم الإله الواحد فهو شائع بغض النظر عن دين الفرد. فالدينكا، مثلاً، يؤمنون بإله واحد، يسمونه نيالج (Nhialic)، ويشيع مفهوم الإله الواحد أيضاً وسط كل القبائل الأخرى. إذ ينطبق هذا على النوير والشلك كما ينطبق على القبائل الأخرى في جنوب السودان. إذن، لدينا أديان مختلفة كلها متعايشة منذ زمن بعيد، باختصار، هي الإسلام، والمسيحية والديانات الأفريقية التقليدية".

ويؤكد قرنيق في نهاية حديثه عن التنوع والتعدد بالقول بوضوح بأن السودان الذي يريده هو السودان كوطن لجميع السودانيين، الوطن الموحد والمرتكز في وحدته على هذين التنوع والتعدد، التاريخي منهما والمعاصر. ويشير، في هذا الصدد، إلى أن السودان القديم، السودان الذي رافق الإستقلال قد انتهى بانقلاب الجبهة الإسلامية.

فهو إذن السودان قديم تجاوزه الزمن، ولن يعود. وهناك السودان الجبهة الإسلامية، الذي لا يمكن أن يكون هو السودان الذي يريده الشعب السوداني. السودان الجديد هو السودان الذي تتحقق فيه وحدة الشعب السوداني، بكل مكوناته المتنوعة والمتعددة، في ظل نظام ديمقراطي يحقق للوطن الإستقلال والسيادة، وللشعب الحرية والعدالة الإجتماعية.

هذه المواقف التي ذكرنا ببعض نماذج فيها في حديث قرنق هي التي تؤكد الجوهر الديمقراطي لفكر وسياسة هذا الزعيم الكبير الشهيد، الذي يفتقده السودان في المنعطف الكبير من تاريخه المعاصر. وهو منعطف حافل بالمآسي، وبالتدخلات الخارجية، وباللعب من قبل أصحاب المصالح الضيقة بمصير السودان وبمصير شعبه.

ربما يكون من المفيد، ونحن نتحدث عن جون قرنق وعن حركته وعن سيرته وعن مواقفه وعن استشهاده، أن نذكر القارئ ببعض جوانب من تاريخ السودان الحديث. دخل السودان تحت السيطرة البريطانية في عام 1899 بعد القضاء على الثورة المهدية. دخل البريطانيون ودخل معهم المصريون، وشكلوا إدارة ثنائية، لكن بقرار أساسي للبريطانيين.

كان البريطانيون حريصين، منذ البداية، على الفصل بين الشمال والجنوب، لأهداف خاصة بهم، لعل أهمها الإحتفاظ في المستقبل بجنوب السودان تحت سيطرتهم، عندما تحين مرحلة حصول السودان على استقلاله. وقد أدى ذلك إلى إضعاف الوجود الشمالي في الجنوب. وتطبيقاً لتلك السياسة أنشأوا "الفرقة الإستوائية" داخل الجيش مشكلة من الجنود الجنوبيين حصراً. وحلت هذه الفرقة محل القوات الشمالية التي كانت ترابط في الجنوب. وكان ذلك في أواخر عام 1917. وتبع ذلك التدبير سعي لإبعاد القوات المسلحة المصرية عن السودان. إلا أن الخروج النهائي للسودانيين الشماليين من الجنوب تم في عام 1930. وفي عام 1953 وقعت اتفاقية

بين مصر وبريطانيا حول السودان، لم يتم أخذ رأي الجنوبيين فيها. واعتبر ذلك من قبل الجنوبيين إهانة لهم. فأعربوا عن احتجاجهم. ولم يتم الإلتفات إليهم، الأمر الذي ظل يراكم مواقف الإحتجاج إلى أن حصل التمرد الذي قامت به "الفرقة الإستوائية" في الجيش السوداني المشكلة من الجنوبيين. وهو التمرد الذي وقع في عام 1955، في الفترة التي كانت تجري فيها المفاوضات حول استقلال السودان الذي تم الإتيافاق عليه في عام 1956. وكانت حركة التمرد تلك الإشارة الأولى، والشرارة الأولى، لانطلاق الحركة التي ظلت تتطور إلى أن أخذت اسم الحركة الشعبية لتحرير السودان، وكان بطلها جون قرنق، الذي قادها إلى الإنتصار الأول لها في اتفاقيه السلام في عام 2005.